الرّواية الجزائريّة وقضاياها

من النّشأة إلى سنوات السّبعينيات

Algerian novel and its themes
From the beginning to the 70s

الأستاذة: نعيمة سغيلاني

أستاذة مساعدة أ

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة البليدة 2

الملخّص:

ظهرت الرّواية الجزائريّة متأخّرة بالنّسبة إلى الرّواية في العالم العربي، نتيجة لظروف سياسيّة وفكريّة واجتماعيّة وثقافيّة، عرفتها الجزائر وشهدها العالم بأسره.

وهذا التّأخر لم يمسّ الرّواية والقصة فقط، بل أدّى إلى تأخّر الأدب بصفة عامّة، ونتج عن هذه الظّروف ظهور تيارين في القصّة الجزائريّة هما: التّيّار العربيّ، وهو التّيّار الذي اتّخذ من اللّغة العربيّة أداة للتّعبير؛ والتّيّار الغربيّ، الذي اتّخذ من اللّغة الفرنسيّة أداة للتّعبير

وللتّعمّق أكثر في الظّروف المحيطة بنشأة الرّواية الجزائريّة وأهمّ القضايا التي عالجتها في هذه الفترة قبل الاستقلال وبعده، حتى سنوات السّبعينيات. قمنا بكتابة هذا المقال، الذي سنعرض فيه بعض

المحطّات المهمّة والأساسيّة التي لها علاقة بنشأة فنّ الرّواية في الجزائر.

الكلمات المفاتيح: الرّواية، نشأة الرّواية الجزائريّة، التّيّار العربيّ، التّيّار الغربيّ، قضايا الرّواية الجزائرية.

Summary:

The Algerian novel as such is recent in comparison with novel appearance in the Arab world, because of different circumstances.

This late appearance, also, affected literature, at those times, two novelist tendencies appear: Arabic speaking novelist and French speaking novelist

We write this essay in order to deepen the research of the appearance of Algerian novel and themes that dealt with before independence until 70s

Keywords: novel, Algerian novel appearance, Arabic speaking current, French speaking current, Algerian novel themes.

مقدمة:

تعدّ الرّواية الفنيّة حديثة الظّهور، في أقطار المغرب العربيّ، بالرّغم من وجود تراث سرديّ لدى هذه الشّعوب، تشترك في بعضه مع دول المشرق العربيّ، وتتميّز في بعضه الآخر بفعل تميّزها التّاريخيّ، نظرا لما شهدته المنطقة من تعاقب للحضارات.

والرّواية الجزائريّة هي الأخرى نشأت متأخّرة بالنّسبة إلى الرّواية في العالم العربي، نتيجة لظروف سياسيّة وفكريّة واجتماعيّة وثقافيّة، عرفتها الجزائر وشهدها العالم بأسره.

وهذا التّأخر لم يمسّ الرّواية والقصة فقط، بل أدّى إلى تأخّر الأدب بصفة عامّة، ونتج عن هذه الظّروف ظهور تيارين في القصّة الجزائريّة هما: التّيّار العربيّ، وهو التّيّار الذي اتّخذ من اللّغة العربيّة أداة للتّعبير؛ والتّيّار الغربيّ، الذي اتّخذ من اللّغة الفرنسيّة أداة للتّعبير.

وإن كانت نشأة الرّواية قد تأخّرت نسبيّا في الظّهور في الجزائر في فترة الاستعمار فإنّ تطوّرها كان سريعا في فترة السّبعينيّات من القرن العشرين، أين كان تشكّل الرّواية الجزائريّة، وصرنا أمام تطوّر فعليّ في مجال السّرديّات. وللتّعمّق أكثر في الظّروف المحيطة بنشأة الرّواية الجزائريّة وأهمّ القضايا التي عالجتها في هذه الفترة قبل الاستقلال وبعده، حتى سنوات السّبعينيات. قمنا بكتابة هذا المقال، الذي سنعرض فيه بعض المحطّات المهمّة والأساسيّة التي لها علاقة بنشأة فنّ الرّواية في الجزائر.

الخلفية الثقافية لنشأة فن الرواية في الجزائر:

أولا: العوامل الدّاخليّة التي أسهمت في النّهضة الثّقافيّة والأدبيّة في الجزائر

أ – قبل الاستقلال:

ظهرت في الجزائر في مرحلة ما قبل الاستقلال عوامل داخليّة مهمّة، ساهمت في تحديد اتّجاه الرّواية الجزائريّة، نذكر منها:

1- ثورة الفلاحين في الجزائر عام 1916/1871:

وقعت هذه الثّورة ابتداء من عام 1871، وهي ثورة فلاحيّة توحّد فيها ملاك الأراضي من الجزائريّين، الذين ضايقتهم السّلطات الفرنسيّة بسلب أراضيهم، والفلاحّين البسطاء الذين كانوا بدورهم يوّدون

طرد المستعمر. وقد تزعّم هذه الحركة "المقراني"، وبعد مقتله تسلّم "الشيخ الحداد" من الزّاوية الرّحمانيّة قيادة الحركة، فخمدت هذه الثورة مدّة من الزّمن، لكنّها سرعان ما عادت للظّهور، واستمرّ الأمر إلى غاية 1916. ويرتبط تاريخ هذه الثّورة بظهور أوّل بذرة قصصيّة في الأدب الجزائريّ وهي: "حكاية العشّاق في الحبّ والاشتياق" لـ "محمد بن مصطفى بن إبراهيم" الذي صادر المستعمر أملاكه وأملاك أسرته، ولعلّ ظهور هذه الرّواية كان انعكاسا لنتائج الحملة الفرنسيّة على الجزائر، وإن كانت الحكاية لا تصور ذلك.[1]

- 2-تصاعد النّهضة الوطنيّة والإصلاحيّة في المشرق

تصاعد النّهضة الوطنيّة والإصلاحيّة في المشرق بقيادة "جمال الدّين الأفغانيّ" (1897/1838)، و"محمد عبده" (1905/1849)، و"رشيد رضا"(1935/1865)، ووصولها إلى المغرب العربيّ بوسائل عدّة أهمّها: "جامع الزيتونة" في تونس والذي شكّل همزة وصل بين المشرق والمغرب العربيّ بفعل اتّصال شيوخه بـ"الجامع الأزهر" في مصر، وقد شهد "جامع الزيتونة" مرور رائد الحركة الإصلاحيّة في الجزائر، الشيخ "عبد الحميد بن باديس" سنة 1912م.[2]

- زيارة "محمد عبده" للجزائر، فقد ورد أن "محمد عبده" قد زار الجزائر مرتين، الأولى سنة 1883م، والثانية 1903م.[3]

- قيام "الأزهر" الشريف بتوزيع ملايين الكتب الدّينيّة في المغرب العربيّ، ومرور قسم منها من خلال "جامع الزيتونة" سنة 1913م، وهذا يدلّ على أنّه كانت هناك صلات بين المشرق العربيّ ومغربه.

- اتّصال الشّيخ "ابن باديس" بشيوخ "الأزهر" في القاهرة بعد الحرب العالميّة الأولى، والتقاء الشّيخ "محمد البشير الإبراهيمي" بالسّيد "رشيد رضا" في سوريا عام 1924م.[4]

- الدور الذي لعبته الصّحافة في نشر فكر "جمال الدّين الأفغانيّ" و"الإمام عبده"، فقد ورد أن عدّة صحف جزائريةّ عرضت فكر المصلحين منها: جريدة "المغرب" (1913/1903)، وجريدة "ذو الفقار" (1914/1913)، وجريدة "الأحياء" (1907/1906)، ومن جهة أخرى كان الجزائريّون على اطّلاع على مجلّة "جمال الدّين الأفغانيّ" "العروة الوثقى".[5]

كلّ هذه العوامل أسهمت في نشأة عدد من الحركات الثّقافيّة في الجزائر، أهمّها ظهور المدارس الحرّة، وظهور الصّحافة العربيّة بقيادة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي رفع شعار: " الإسلام ديني، العروبة لغتي، الجزائر وطني".[6]

كما لعبت الحركة الإصلاحيّة في الجزائر دورا مهمّا في إحياء اللّغة العربيّة وبعثها من جديد، مقابل اللّغة الفرنسيّة، التي كانت سائدة في البلاد، فالعربيّة في الجزائر تعرّضت لعوامل عدّة أشهرها أن الاستعمار الفرنسيّ حاول القضاء عليها بشتّى الطرق، وإحلال اللّغة الفرنسيّة محلّها، ولم يكتف الاستعمار الفرنسيّ بالقضاء على الفصحى فقط، بل امتدّ حتى إلى اللّهجة الجزائريّة الدّارجة، وهذا ما زاد من تخوّف الجزائريّين من فقدانها، وقد كان هذا دافعا للبعض أدى بهم إلى جمع الأشعار والقصائد الملحونة.[7]

كما قام رواد الحركة الإصلاحيّة بعدّة نشاطات للحفاظ على الهوية الجزائريّة العربيّة والإسلاميّة؛ حيث أسس "عبد الحميد بن

باديس"، المدارس العربية الحرّة في الجزائر، بعد أن كان "الأطفال الجزائريّون يزاولون ضربين من التّعليم لا ثالث لهما: إمّا أن يتردّدوا على المدارس الفرنسيّة الرّسميّة، أو أن يختلفوا إلى الكتاتيب القرآنية"[8]

- أصدر الشّيخ "ابن باديس" في عام 1925م جريدة "المنتقد" لتكون منبرا يبث من خلاله الآراء الإصلاحيّة باللّغة العربيّة. إلاّ أنّ السّلطات الفرنسيّة أوقفتها. أصدر بعدها مباشرة مجلة "الشهاب" التي عمّرت نحو خمسة عشر عاما.[9] وكانت منبرا لمناقشة الأفكار الدّاعيّة إلى الإصلاح السّياسيّ، والدّينيّ والاجتماعيّ؛ كما قامت هذه المجلة بنشر أراء المصلحين وأفكارهم، من بينهم محمد عبده.

- أسّس الشيخ "عبد الحميد بن باديس" " جمعية العلماء المسلمين" عام 1931م، وكان هدفها جمع النّاطقين باللّغة العربيّة وتوحيد أرائهم الدّينيّة، وتنسيق جهودهم في حقل التّعليم الحرّ، كما نادت بالنّهوض بالدّين الإسلاميّ وتحريره من الخرافات التي لحقت به من لدن المستعمر الفرنسيّ، وفصله عن الحكومة الفرنسيّة.[10]

-أصدر الشيخ ابن باديس عام 1935 جريدة " البصائر الأولى" والتي استمرّت حتى عام 1939م. ثمّ عادت فظهرت ثانية على يد الشيخ "البشير الإبراهيمي" عام 1947م. وقد تميّزت "البصائر الثانية" بأسلوب أدبيّ مشرق وبليغ، ومن أبرز كتابها الشّيخ "البشير الإبراهيمي" نفسه، و"حمزة بوكوشة " الذي كان مديرا لإحدى مدارس جمعية العلماء المسلمين.[11]

- أسّس الشّيخ "البشير الإبراهيمي" عام 1948م، " معهد ابن باديس" في قسنطينة، ويقال أنّه أوّل معهد للدّراسة الثّانويّة باللّغة العربيّة في الجزائر.[12]

- ولم يكن دور الحركة الإصلاحيّة في الجزائر مقصورا على قضيّة اللّغة العربيّة والهوية الجزائريّة والتّمسّك بالدّين الإسلاميّ، بل تطرّق أيضا، إلى قضيّة الإصلاح الاجتماعيّ وفي مقدمتها قضيّة الشّباب وقضيّة المرأة، فقد تناول "عبد الحميد بن باديس" في مجلة " الشهاب" قضايا الشّباب من جهل وتفرنس، وتطرّق إلى قضيّة سفور المرأة، حيث دعا "ابن باديس" إلى رفع حجاب الجهل عن عقل المرأة، قبل رفع حجاب السّتر عن وجهها. ونشر في مجلة " الشهاب" أراء "رشيد رضا" المتعلّقة بمسألة اختلاط المرأة بالرّجل ومسألة الميراث.

وعلى خلفية هذه المناقشات على صفحات مجلة " الشهاب"، ظهرت في الجزائر في مرحلة الثّلاثينيات والأربعينيات، فئة من الكتّاب تناولوا في كتابتهم موضوعات الإصلاح الاجتماعيّ، من بين هؤلاء القاصّ" أحمد رضا حوحو"(1965/1911)، الذي تعرّض في كتاباته إلى قضيّة المرأة الجزائريّة ودافع عن حقوقها مطالبا بتعليمها. ففي قصته "غادة أم القرى" التي صدرت عام 1947م، قدم "رضا حوحو" إهداءه " إلى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحبّ ... من نعمة العلم ... من نعمة الحريّة ... إلى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود ... إلى المرأة الجزائريّة أقدم هذه القصة تعزية وسلوى ".[13]

وقد أجمع الباحثون على أن قصّة "غادة أم القرى" لـ"أحمد رضا حوحو" هي أوّل رواية عربيّة ظهرت في الجزائر قبل مرحلة السبعينيات، هذا باستثناء رواية "حكاية العشاق في الحبّ والاشتياق" لـ"محمد بن إبراهيم" التي عثر عليها المرحوم الدّكتور "أبو القاسم سعد الله" مخطوطة في المكتبة الوطنيّة بالجزائر العاصمة، فقام بتحقيقها وطبعها سنة 1977*، والتي قال فيها أنّها تمثل المرحلة الأولى لميلاد الرّواية

العربيّة على مستوى الوطن العربيّ. كتبت هذه الرواية سنة 1849م، من قِبَل السّيد "محمد بن إبراهيم" المولود بالجزائر سنة 1806م المدعو «الأمير مصطفى" وهو الذي كان جده" مصطفى باشا" دايا على الجزائر (1805/1795)، عانى أبوه "إبراهيم" في مواجهة الاستعمار الفرنسيّ، منذ بدايته سنة 1830م، فلقي السّجن ثم توفي سنة 1846م تاركا ابنه محمد في مواجهة وضع صعب، أسهم في ميلاد هذه الرواية، وهي تحمل ظلال القصّة الشّعبيّة ولغتها، وسمات الرّواية الفنيّة والشّيء الذي أساء إليها بالخصوص هو شيوع الدّارجة الجزائريّة فيها، وهذا حسب رأي الأستاذ «أبو القاسم سعد الله" حيث قال :" فهي كما بدا لي في مستوى بين القصّة الشّعبيّة والرّواية الفنيّة ... لهذا ربما بدا مني ميل إلى اعتبار هذه القصّة الطّويلة (155ص)، مرحلة أولى في ميلاد الرّواية العربيّة الحديثة على مستوى الوطن العربيّ كلّه"[14]

3 -أحداث 8ماي 1945م

إثر انتهاء الحرب العالميّة الثّانية، وانتصار الحلفاء على النّازيين الألمان خرج الشّعب الجزائريّ في مظاهرات يطالب السّلطات الفرنسيّة بالوفاء بالوعود المضروبة له إثر مشاركته في هذه الحرب، فما كان من السّلطات الفرنسيّة إلاّ أن تصدّت لهذه المظاهرات بفتح النّار عليهم فسقط عدد كبير من القتلى، قدرته المصادر بحوالي 45 ألف جزائري، فكانت أكبر مجزرة وأبشعها شهدتها الجزائر؛ حيث أسهمت هذه المجزرة البشعة في إيقاظ الوعي السّياسيّ عند بعض المثّقفين الجزائريّين، فـ"كاتب ياسين" وإن كان يكتب باللّغة الفرنسيّة والذي سجن عدّة أشهر على إثر اشتراكه في هذه الانتفاضة، يقول كما

روي عنه : " عام 1945 استفزّت إنسانيتي، هنا صقلت وطنيتي"، كما نقل عن الشّاعر والرّوائيّ "مالك حداد" قوله : " إن يوم 8 ماي 1945 هو يوم ميلادي "، ويذهب بعضهم إلى حدّ اعتبار أحداث 8 ماي 1945 نقطة تحوّل كبير في الأدب الجزائري، فبعد أن كان الأدب العربيّ في الجزائر تقليديّا، يعنى بالمحسنات اللّفظيّة، ويجعل من اللّغة غاية جمالية في حدّ ذاتها، تحول بعد أحداث 1945 إلى أدب إنساني يحاكي قضايا الشّعب الجزائريّ في ألامه وآماله[15] وصار يعتمد الألفاظ السّهلة و يتطرّق إلى وصف مشاكل المجتمع الجزائريّ، فظهرت أوّل رواية باللّغة العربيّة في عام 1947م وهي "غادة أم القرى " لأحمد رضا حوحو.[16] وهي تعبّر عن معاناة المرأة الحجازيّة ضغوط القهر والحرمان ذي الوجوه المختلفة وقد عاش "رضا حوحو" فترة هناك مع أسرته (1946/1934)، وانتهى من كتابتها في الجزائر (1جانفي 1947) بعد عودته، فأدان فيها الواقع الذي تحرم فيه المرأة حقّها في الرّأي وتصادر مشاعرها لتعيش الشّقاء والبؤس، فبدا للكاتب أن المرأة الجزائريّة لا تختلف في ذلك عن أختها الحجازيّة، لذا أهداها روايته وهو يعيش قريبا منها في وطنه الصّغير من الوطن العربي الكبير.

أما المحاولة الثّانية فكانت سنة 1951م من تأليف "عبد المجيد الشافعي" بعنوان «الطالب المنكوب" وهي تصوّر حياة طالب في تونس سقط في حب فتاة كاد يؤدّى به إلى الإغماء.[17] ثم تأتي "الحريق" لـ "محمد ديب"، والتي صدرت سنة 1957م، عن الشّركة التّونسيّة للفنون والرّسم. وأما الرابعة " صوت الغرام " فكانت لـ "محمد منيع"، ثم " رمانة " لـ "الطاهر وطار".[18] كما ظهرت لـ "أحمد رضا حوحو" ثلاث مجموعات قصصية:

الأولى: بعنوان" مع حمار الحكيم "، صدرت في الجزائر عام 1953م، ضمّت مقالات نقديّة قصصية ساخرة نشرت تباعا في جريدة "البصائر"، متأثّرا في ذلك بقصة " الحمار الحكيم " "لتوفيق الحكيم".

الثانية: بعنوان " صاحبة الوحي " صدرت في الجزائر سنة 1954م، وهي مجموعة قصصية ضمّت ثماني قصص ومسرحية.

الثالثة: بعنوان " نماذج بشرية " صدرت في الجزائر عام 1955م وهي تجمع بين القصّة والمقالة.

إضافة إلى هذه الأعمال المطبوعة والمنشورة، ترك "رضا حوحو" أعمالا مخطوطة عند استشهاده سنة 1956م، كما أكدّه الأستاذ "أحمد منور" في مقدمة صاحبة الوحي، حيث قال: "... وقد ترك بالفعل حين استشهاده سنة 1956م عددا من الأعمال المخطوطة يأتي في مقدمتها كتابه المسمى "في الأدب والاجتماع "، بالإضافة إلى عدد من المسرحيات: "سي عاشور والتمدن"؛ "عنبسة أو ملكة غرناطة"؛ "البخيل"؛ "سي زعرور أو النائب المحترم"؛ "بائعة الورد". وكلّها مسرحيات مقتبسة من الأدب الفرنسيّ."[19] وعلى العموم فقد ساد الطّابع الاجتماعيّ، والإصلاحي على وجه الخصوص، أغلب كتابات أحمد رضا حوحو.

ومما سبق، يظهر جليّا أنّ سبب تأخّر ظهور الرّواية يرجع إلى أنّ الفنّ صعب يحتاج إلى تأمّل طويل وإلى صبر وأناة، ثم يتطلّب ظروفا ملائمة تساعده على تطويره، وعناية الأدباء به في مقدّمة هذه الظروف أنّ الكُتّاب الجزائريّين الذين كتبوا باللّغة العربيّة أدبا عربيّا، اتّجهوا إلى القصّة القصيرة، لأنّها تعبّر عن واقع الحياة اليوميّة خاصّة

أثناء الثّورة التي أحدثت تغييرا عميقا في الفرد، فكان أسلوب القصّة ملائما للتّعبير عن الموقف.[20]

فقد كانت فترة الخمسينيات بالنّسبة للعالم العربيّ بداية مرحلة حاسمة على جميع الأصعدة سواء الاجتماعيّة منها أم الاقتصاديّة في تحرير بعض الأقطار العربيّة، وإعلان الثّورات، كثورة الجزائر (1962/1954). فظهرت في هذه الفترة الرّواية المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، وكانت أكثر الفنون سيطرة على السّاحة، خاصّة في سنوات (1953/1952) التي شهدت ميثاق فجر القصّة؛ حيث كتب «مولود فرعون" " الأرض والدّم " و" ابن الفقير " و" النّهضة المنسيّة «وظهرت أعمال " محمد ديب الثّلاثيّة " وتتابعت الأعمال لتحديد اتّجاهات ذلك النّوع الأدبيّ الذي سار في اتجاهين هما:

أ- اتّجاه المحافظة والتّمسّك بالماضي

ب-اتّجاه التّجديد والدّعوة إلى محاكاة الغرب.[21]

ورغم سيادة الرّواية المكتوبة باللّغة الفرنسيّة في الفترة الممتدّة بين 1945م و1953م فإنّها لم تزد عن وصف ما تراه العين يوميا، وتمثّل هذه الحقبة بعض كتابات «مولود معمري" و"محمد ديب" و"مولود فرعون" [22].

كما أنّ انتفاضة 19 ماي 1956م قد تركت بصماتها أيضا، على الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، كما ذهب إليه الدّكتور "واسيني الأعرج"، إذ أعلنت جبهة التّحرير الوطنيّ على إثر الانتفاضة، عن خطوطها العريضة التي قال فيها أحدهم: " إنّ الثّورة الجزائريّة ليست حربا أهليّة أو دينيّة، إنّما تريد أن تقيم جمهوريّة اشتراكيّة

ديمقراطيّة، تؤمن المساواة الحقيقيّة بين جميع المواطنين في بلاد واحدة دون أي تمييز "[23].

كل هذه الأحداث تركت أثرها في الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، فظهرت أعمال أكثر واقعية وأكثر نضجا، متجاوزة النّقد الاجتماعيّ المجرّد. ولعلّ كتابات "محمد ديب"، و"كاتب ياسين" هي على رأس هذه الأعمال.[24] كما تبلور بين 1958م/1962م أدب المقاومة في الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، واتّخذ أبعادا أكثر اتّساعا، وأكثر شمولية، وصار يقدّس الشّهادة في سبيل الوطن، ولعلّ أحسن من يمثّل هذه الحقيقة "محمد ديب" و"مولود فرعون" و"مالك حدّاد".[25] مقابل هذا الإنتاج الذي يمكن وصفه بالكثيف للرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة في مرحلة الخمسينيات ومطلع السّتينيات، لم تظهر الرّواية العربيّة في الجزائر حتّى سنة 1970، على يد "عبد الحميد بن هدوقة" والمتمثّلة في روايته "ريح الجنوب". ولعلّ طغيان الكتابة باللّغة الفرنسيّة في هذه الفترة، كان سببا من أسباب تأخّر ظهور الرّواية الجزائريّة باللّغة العربيّة، وهذا راجع إلى الكتّاب الذين كانوا لا يتقنون اللّغة العربيّة إلى درجة الكتابة بها، ففي الجزائر الكولونيالية كان التّعليم كلّه في المدارس والمعاهد يتمّ باللّغة الفرنسيّة، ما عدا المؤسّسات التّعليميّة الإسلاميّة.

كما رأى الباحثون أنّ اختفاء الرّواية في مرحلة ما قبل الاستقلال، راجع إلى أساليب الدّراسة في المعاهد الدّينيّة " كالأزهر" و"الزيتونة" و"القرويين" التي اتّجه إليها معظم المثقّفين باللّغة العربيّة من الجزائريين؛ فقد انصبّت الدّراسة في هذه المعاهد على الشّعر والثقافة

العربيّة الكلاسيكيّة، ولم تعن بالأنواع الأدبيّة الأخرى كالرّواية. وربما يعود تأخّر ظهور الرّواية، إلى ما أثبته الدكتور "عبد الله ركيبي" في قوله: "إن الرّواية أو الأدب الرّوائيّ، أوّل ما يتطلّب فيه لغة مرنة تستطيع أن تصوّر قطاعات كبيرة من المجتمع أو تصوّر جوانب مختلفة لحياة الأفراد ومشاكلهم وأحاسيسهم"[26]

إلاّ أنّ سنوات السّبعينيات حملت معها تباشير تحوّل جذريّ على جميع الأصعدة، الاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والفكريّ. ففي هذه الأثناء برزت مجموعة من الأعمال الرّوائيّة العربيّة، حتىّ وإن تأخّر ظهورها، فذلك أمر طبيعيّ اقتضته ضرورة التّمرّس النّاجمة عن الثّورة الجزائريّة والمترتّبة عن استرجاع الشّعب لسيادته الوطنيّة، وإلى غير ذلك من العوائق التي أعاقت مواكبة الرّواية الجزائريّة للأعمال العربيّة المبكّرة، والتي ترى أنّ سببها الرئيس هو الاستعمار.[27]

ب– بعد الاستقلال (1962م/1970م)

عرفت المرحلة الممتدّة بين 1962 و1970 تجارب رائدة في القصّة القصيرة؛ إذ صدرت ل: "عبد الحميد بن هدوقة" مجوعته القصصيّة " الأشعّة السّبعة " في تونس 1962م. كما صدرت لـ"زهور ونيسي"، وهي أوّل قاصّة وروائيّة جزائريّة كتبت باللّغة العربيّة مجموعتها القصصيّة" الرّصيف النّائم" في عام 1967م. كما ظهرت لـ"الطاهر وطار" مجموعته القصصيّة "الطعنات" 1969، عن الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، تشتمل على إحدى عشرة قصّة.[28]

في هذه الأثناء كانت الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة قد قطعت أشواطا كبيرة؛ إذ حقّقت في مرحلة السّتينيات إنجازات فنيّة مهمّة على الصّعيدين المحليّ والعالميّ؛ حيث ساعدتها في ذلك ظروف خاصّة افتقدتها الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة العربيّة، من بين هذه الظّروف، ثقافة الروائيّين الذين كانوا منفتحين على الأعمال الرّوائيّة العالميّة، إضافة إلى الرّصيد الرّوائيّ الذي خلّفه كتّاب فرنسيّون أقاموا في الجزائر أمثال «ألبير كامو"، و"إمانويل رويلز"... [29] كذلك في بداية السبعينيات، تحقّقت للشّعب الجزائريّ مكاسب ثوريّة مهمّة منها: الثّورة الزراعيّة، والتّسيير الاشتراكيّ للمؤسّسات، والطّب المجانيّ، وكذلك لجان التّطوع في الجامعات لفائدة الثّورة الزراعيّة.[30] في ظلّ هذه الأحداث ظهرت "ريح الجنوب" لـ "عبد الحميد بن هدوقة"، التي أنهى كتابتها سنة 1970م؛ حيث تعتبر هذه الرّواية النشأة الجادّة لرواية فنيّة ناضجة حسب "عمر بن قينة" إذ يرى أنّ النّشأة الجادّة لرواية فنيّة ناضجة ارتبطت برواية " ريح الجنوب " وقد كتبها "عبد الحميد بن هدوقة" في فترة كان الحديث السّياسيّ جاريّا بشكل جدّيّ عن الثّورة الزراعيّة، فأنجزها في 5 نوفمبر 1970م، تزكية للخطاب السّياسيّ الذي كان يلوح بآمال واسعة لإخراج الرّيف من عزلته، ورفع الضّيم عن الفلاح، ودفع كلّ أشكال الاستغلال عن للإنسان، وسرعان ما تكرّس ذلك الخطاب الطّويل، الذي هلّل له الإعلام كثيرا، في قانون الثّورة الزراعيّة الصّادر رسميّا في 8 نوفمبر 1971م، ثمّ دخل التّطبيق الفعليّ. فجاءت هذه الرّواية بمثابة تنبّؤ بالثّورة الزراعيّة؛ ثمّ خطت الرّواية خطوة فنيّة نحو التّطور الإيجابيّ – فنيا– سنة (1972) في هذه النشأة، برواية " اللاّز " التي تستمد الثّورة ماضيا،

وبعض نتائجها السّلبيّة، لاحقا بعد الاستقلال، وامتداد نتائج مختلفة حتى السّبعينيات، ممّا هيّأ للموقف (الأيديولوجيّ) اليساريّ السّافر، المقرون في الوقت نفسه بمستوى متطوّر في المعالجة: في الصّياغة وصفا وتصويرا، بالسّرد والحوار المباشر، وحديث النّفس باستدراج ذكريات ومواقف ومشاعر وآمال وسواها. وتعتبر هاتان الرّوايتان الأرضية الصّحيحة في التّأسيس لرواية جزائريّة بلسان الأمّة والوطن (العربية).[31]

كما ظهرت في عام 1974 رواية " الزلزال" لـ "الطاهر وطار" التي تناولت موضوع الثّورة الزراعيّة، كما صدرت له في عام 1980م رواية " العشق والموت في الزمن الحراشي " التي تناولت موضوع لجان التّطوع في الجامعات، وظهرت في عام 1975م رواية "عبد الحميد بن هدوقة" الثّانية وهي رواية " نهاية الأمس " تناولت قضية الإصلاح، وقضية التّعليم والأيدلوجية الاشتراكيّة.[32]

كما ظهرت لـ "زهور ونّيسي" عام 1979م رواية هي " من يوميات مدرسة حرّة "

ثانيا–العوامل الخارجيّة التي ساهمت في ظهور البيئة الثّقافيّة في الجزائر

1. تأثّر الروائيّين الجزائريّين الذين يكتبون باللّغة العربيّة بكتابات المشرق العربيّ: جاء عند "عبد المالك مرتاض" في كتابه " الثّقافة العربيّة في الجزائر بين التّأثير والتّأثّر" أن الروائيّين الجزائريّين كانوا أوّل الأمر مضطرّين إلى تقليد المشارقة واقتفاء سبيلهم.[33] وخير من يمثّل ذلك "أحمد رضا حوحو" في كتابه " مع حمار الحكيم " الذي

استلهمه ممّا كتبه توفيق الحكيم، وقد اعترف "حوحو" بذلك في مقدمة كتابه.[34]

2. **تأثّر الروائيّين الجزائريّين بالإنتاج الغربيّ:** تأثّر الروائيّون الجزائريّون الذين يكتبون باللّغة الفرنسيّة، بالإنتاج الغربيّ والفرنسيّ على وجه التّحديد وهذا راجع إلى سياسة الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر منذ احتلالها عام 1930م حيث عمد إلى فرض اللّغة الفرنسيّة على الجزائريّين في المدارس والدّوائر الرّسميّة، وبالتّالي بعد مرور الوقت أصبحت هي اللّغة السّائدة في الجزائر منذ توغّله، وسيطرت اللّغة الفرنسيّة على التّعليم والثقافة والإدارة، وفي شتّى مرافق الحياة الجزائريّة.[35]

كما أدّى ظهور كتّاب فرنسيّين في الجزائر أمثال " ألبير كامو" و"آدمون شارلو" ... إلى التّواصل الثّقافيّ بين الجزائريّين والفرنسيّين.

لذلك بقي النّتاج العربيّ غائبا تقريبا، ليشجّع الاستعمار الكتابة باللّغة الفرنسيّة ولا نستغرب أن تكون الرّواية الفرنسيّة أسبق في الظّهور من الرّواية المكتوبة باللّغة العربيّة، لأنّ كل ما هو عربيّ كان مكبوتا[36]؛ حيث سادت في المرحلة الممتدّة من عام 1945 إلى 1953، الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، التي كما يقول الدكتور "واسيني الأعرج" لا تزيد عن وصف ما تراه العين يوميا، وتمثّل هذه الحقبة كتابات "مولود فرعون" و"مولود معمري" و"محمد ديب". فكانت رواية "مولود فرعون" " نجل الفقير" التي صدرت سنة 1950م هي أوّل عمل أدبيّ عالج فيها الرّوائيّ قضية الفقر في منطقة القبائل أثناء فترة

الاحتلال الفرنسيّ. كما جاءت روايته الثّانية " الأرض والدم «في الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميّتين وذلك سنة 1952م. وروايته الثّالثة "الدروب الوعرة" تعتبر بداية الثّورة ونهاية صدام الحضارات.[37] ويذهب "واسيني الأعرج" إلى القول بأنّ انتفاضة 19 جوان 1956 قد تركت بصماتها على الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، فظهرت أعمال أكثر واقعية، وأكثر نضجا متجاوزة النّقد الاجتماعيّ المجرّد، ولعلّ كتابات "محمد ديب" و"كاتب ياسين" هي على رأس هذه الأعمال. فبرز "محمد ديب" بأعماله التي جاءت لتتابع تحوّل الجزائريّين من الرّكود إلى اليقظة الوطنيّة وحتى النّقد الذّاتي[38]. فجاءت أعماله الرّوائية "الدّار الكبيرة" 1952م، "الحريق"، كما نشر قصّته" صيف أفريقي" حيث صوّر موقف مختلف فئات المجتمع الجزائريّ من الحرب. كما كتب روايتيه التاليتين "من ذا الذي يذكر البحر" و"ركض على الضّفة المهجورة" 1964م، فهما تختلفان جذريا عن رواياته السّابقة، فإن كان في رواياته الأولى يكتب عن آداب السّلوك في الأغلب، فهو الآن يعمل مع أوهام الخيال[39].

كما تبلور بين عاميّ 1958 و1962 أدب المقاومة في الرّواية المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، واتّخذ –على حدّ قول "واسيني الأعرج"–أبعادا أكثر اتّساعا وأكثر شمولية، وصار يقدّس الشّهادة في سبيل الوطن، وأحسن من يمثّل هذه الحقبة "محمد ديب"، و"مولود فرعون"، و"مالك حداد"[40].

الخاتمة:

وهكذا تضافرت العوامل الدّاخليّة والخارجيّة على تهيئة البيئة الثّقافيّة التي تولّدت فيها الرّواية الجزائريّة الحديثة، سواء المكتوبة باللّغة العربيّة أو المكتوبة باللّغة الفرنسيّة، والتي عبّرت عن حيوية الحياة الثّقافيّة والأدبيّة خلال السبعينيات، والتي سرعان ما شرعت تشهد ازدهارا لهذا الفنّ، خصوصا في نصفها الثّاني، كما تأصّل نوع أدبيّ جديد ناضج في الأدب الجزائريّ الحديث، المعبّر بلغة الوطن عن واقع وقضايا ومواقف في مستويات أدبيّة فنيّة مختلفة.

المصادر والمراجع:

1. أحمد رضا حوحو " صاحبة الوحي، " تقديم أحمد منور، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب الطّبعة الثانية،1988.
2. أحمد رضا حوحو، غادة أم القرى، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1983.
3. أحمد رضا حوحو" مع حمار الحكيم" المؤسّسة الوطنيّة للكتاب الجزائر.
4. إدريس بودیبة، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، الجزائر، 2007.
5. جورج الراسي، الإسلام الجزائري من الأمير عبد القادر إلى أمراء الجماعات، دار الجديد بيروت، 1997.
6. سعد فهمي، حركة عبد الحميد بن باديس ودورها في يقظة الجزائر، بيروت، دار الطّباعة والنشر والتوزيع، 1983.
7. سلمان نور، الأدب الجزائري في رحاب الرّفض والتّحرير، بيروت، دار العلم للملايين، 1981.

8. صالح مفقودة، نشأة الرّواية العربيّة في الجزائر، التّأسيس والتّأصيل، مقال، مجلة " أبحاث في اللّغة والأدب العربيّ "
9. الطّاهر بولحية، التراث الشعبي في الرواية الجزائرية، الجزائر، 2000.
10. عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925 –1967، ترجمة الدكتور محمد صقر – ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر.
11. عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
12. عبد الله الركيبي، القصّة الجزائريّة القصيرة، الطّبعة الثّانية، الدّار العربيّة للكتاب – ليبيا – تونس، 1977م.
13. عبد الملك مرتاض، الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر، دار الحداثة بالتّعاون مع ديوان المطبوعات الجامعيّة بالجزائر، 1982.
14. عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائري، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع الجزائر، 1983.
15. عمر بن قينة، دراسات في القصّة الجزائريّة (القصيرة، الطّويلة)، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1986م.
16. عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تاريخا .. وأنواعا. وقضايا.. وأعلاما) ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية – بن عكنون –الجزائر 1995.

17.محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والإلتزام، الدّار العربية للكتاب بـ(ليبيا – تونس) الشّركة الوطنيّة للنّشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

18.واسيني الأعرج، الأصول التاريخية للواقعية الاشتراكية، بيروت، مؤسّسة دار الكتاب الحديث للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1986.

-الهوامش:

[1]-ينظر: صالح مفقودة، نشأة الرّواية العربيّة في الجزائر، التّأسيس والتّأصيل، مجلة " أبحاث في اللّغة والأدب العربيّ " ص 15،16

[2]- سعد فهمي، حركة عبد الحميد بن باديس ودورها في يقظة الجزائر، بيروت، دار الطّباعة والنشر والتوزيع، 1983، ص48.

[3]- سلمان نور، الأدب الجزائري في رحاب الرّفض والتّحرير، بيروت، دار العلم للملايين، 1981، ص148، 149.

[4]-جورج الراسي، الإسلام الجزائري من الأمير عبد القادر إلى أمراء الجماعات، دار الجديد بيروت، 1997 ص 173

[5]- سلمان نور، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتّحرير ص148.

[6]- عبد الله الركيبي، القصّة الجزائريّة القصيرة، الطّبعة الثّانية، الدّار العربيّة للكتاب – ليبيا – تونس، 1977م، ص20.

[7]- عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائري، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع الجزائر، 1983، ص26.

[8]-المرجع نفسه، ص41.

[9]-المرجع نفسه، ص41.

[10]-عبد الله ركيبي، القصة القصيرة، ص23، وعبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربيّ المعاصر، ص19

[11]-عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص42 و103.

[12]- المرجع نفسه، ص 42 و43.

[13]- أحمد رضا حوحو، غادة أم القرى، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1983، ص5.

*كما قامت الأستاذة رجاء مستور بإعادة تحقيقها في إطار إنجاز بحثها المتعلّق بشهادة الماجستير، ونوقشت الرّسالة في 15 جويلية 2001م بجامعة الجزائر

[14]-عمر بن قينة، دراسات في القصّة الجزائريّة (القصيرة، الطّويلة)، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1986م.

[15]-عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب الأدب العربيّ المعاصر في الجزائر، ص147، 148، 149.

[16]- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تاريخا. وأنواعا. وقضايا. وأعلاما) ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية – بن عكنون –الجزائر 1995، ص197.

[17]- المرجع نفسه، ص197.

[18]-المرجع نفسه، ص 198 ،199.

[19]- أحمد رضا حوحو " صاحبة الوحي، " تقديم أحمد منور، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب الطّبعة الثانية،1988 ص10 .

[20]-عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص200.

[21]- الطّاهر بو لحية، التراث الشعبي في الرواية الجزائرية، الجزائر، 2000، ص84.

[22]- واسيني الأعرج، الأصول التاريخية للواقعية الاشتراكية، بيروت، مؤسّسة دار الكتاب الحديث للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1986 ص78، 79.

[23]- المرجع نفسه، ص31.

[24]- المرجع نفسه، ص 79.

[25]- المرجع نفسه، ص 80.

[26]- عبد الله ركيبي، القصّة الجزائريّة المعاصرة، ص249.

[27]- الطاهر بولحية، التّراث الشّعبي في الرّواية الجزائريّة، ص86.

[28]- عمر بن قينة، في الأدب الجزائريّ الحديث، ص 243.

[29]- واسيني الأعرج، الأصول التاريخية للواقعية الاشتراكية، ص 89.

[30]- واسيني الأعرج، المرجع نفسه، ص 102.

[31]-عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ص 198.

[32]- محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدّار العربية للكتاب بـ(ليبيا – تونس) الشّركة الوطنيّة للنّشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 89 .

[33]- عبد الملك مرتاض، الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر، دار الحداثة بالتّعاون مع ديوان المطبوعات الجامعيّة بالجزائر، 1982 ص.

[34]--أحمد رضا حوحو" مع حمار الحكيم" المؤسّسة الوطنيّة للكتاب الجزائر.

[35]--عبد الله ركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، ص13، 14.

[36]-إدريس بودبية، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، الجزائر، 2007، ص 33.

[37]-عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925 -1967، ترجمة الدكتور محمد صقر – ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر.

[38]- المرجع نفسة ص 73.

[39]- واسيني الأعرج، الأصول التّاريخيّة للواقعيّة الاشتراكيّة، ص80

[40]- المرجع نفسه، ص80.